الخطاب الديني الإسلامي المعتدل

مفهومه وأهم مرتكزاته

أ.م.د. ياسر إحسان رشيد

جامعة الأنبار

كلية العلوم الإسلامية

yasiralanny@yahoo.com

ISSN: 2071-6028

مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية

عدد

خاص بالمؤتمر

الدولي الأول

لجامعة الأنبار الموسوم

(الاعتدال في الخطاب الديني

والسياسي وأثره في تعزيز

التنمية المجتمعية)

١٠/٣١ - ١١/١

٢٠١٨ م

مجلة علمية فصلية محكمة

ISSN: 2071-6028

الخطاب الديني الإسلامي المعتدل مفهومه وأهم مرتكزاته

أ.م.د. ياسر إحسان رشيد
جامعة الأنبار/ كلية العلوم الإسلامية

ملخص باللغة العربية

أتاحت وسائل التواصل الحديثة إمكانية كبيرة للأفراد والجماعات في الانفتاح على العالم، وهذا أعطى إمكانية توجيه الخطاب من قبل الأفراد وإيصاله إلى الناس، ومع ما لهذا الأمر من الأثر الكبير في تلاقح الأفكار وغير ذلك، إلا أنه كان سبباً في ظهور خطاب ديني متشنج في مواقع التواصل الإلكترونية وغيرها. من هنا برزت الحاجة إلى الخطاب الديني المعتدل الذي يؤدي إلى النتائج المرجوة منه من نشر الفضيلة في المجتمع وهداية الناس إلى دين الله سبحانه، إلا أن الكثيرين (في غمرة شعورهم بالمسؤولية عن دينهم وغيرتهم على عقيدتهم) غاب عنهم ذلك مع أنهم يدَّعون أن خطابهم خطاب معتدل وسطي، حتى الجماعات المتطرفة تدَّعي الوسطية والاعتدال، وما ذلك إلا بسبب الجهل بمفهوم الخطاب المعتدل وأركانه ووسائل تحقيقه. في هذا السياق يأتي هذا البحث الموسوم لتوضيح مفهوم الخطاب الديني الإسلامي، ومفهوم الاعتدال في الخطاب الديني الذي عُرِّف بأنه ((التزام صاحب الخطاب بالأسلوب المهذب والخلق الرفيع والتواضع، والفهم الصحيح للنصوص الشرعية، والبعد عن التعصب والعنصرية، والتزام الموضوعية والإخلاص في الدعوة إلى الدين)). ثم عرض الباحث أهم المرتكزات التي يقوم عليها الخطاب الديني المعتدل. وقد توصل الباحث لجملة نتائج، أهمها: السعي إلى أن يتولى الخطاب الديني الإسلامي مؤسسات ومجامع دينية؛ للوصول إلى خطاب ديني ناضج واعٍ متكامل، وضرورة تحديد مفهوم الخطاب الديني المراد توسطه، إذ المقصود به الوسائل المتبعة في إيصال الدين الإسلامي إلى الناس كالخطب الدينية والفتاوى والكتب والمقالات وغيرها. كما خرج الباحث بجملة توصيات منها: عدم إقحام الدين في التعبئة السياسية والترويج للأحزاب، وضرورة إقامة مؤتمرات وندوات في بعض الموضوعات المهمة ذات الصلة.

الكلمات المفتاحية: خطاب ، ديني ، مرتكزات

The Religious Islamic Moderate Discourse: Concept and Bases

Ass. Prof. Dr. Yser Ihsan Rasheed

Abstract: Modern means of communication have provided a great potential for people and groups to be opened to the world. This has given people the ability to direct discourse to the masses. However, despite the great advantages of these means in exchanging ideas, they have been the cause of the spread of a religious convulsive discourse. Hence, the need has emerged for a moderate religious discourse which leads to fruitful results represented by the dissemination of virtue in communities and guiding people to the right path of faith. However, many people, triggered by the belief in the responsibility of safeguarding their doctrine, have ignored this notion although they claim that their discourse is moderate. Even extremist groups claim moderation as a result of ignorance of the concept of moderate discourse, its principles and means of achieving moderate discourse. In this light, the study aims at clarifying the concept of the Islamic religious discourse and the concept of moderation in religious discourse. Moderation in religious discourse is defined as the commitment to adhere to eloquent style, high moral, resilience, sound understanding of religious texts, avoiding extremism and coercion, adhering to objectivity and honesty in religious preaching. Moreover, the study aims at highlighting the most important bases of the moderate religious discourse. The most important findings of the study include the fact that the Islamic religious discourse should be under the responsibility of specialized religious institutions and syndicates to arrive at a mature and perfect religious discourse. In addition, the concept of the religious discourse to be moderate should be determined, i.e. the adopted means of communicating the religious discourse to people such as orations, religious opinions books and articles. The most important recommendations of the study include distancing religion from political recruitment and propaganda for parties and holding conferences and seminars on subjects pertaining to moderation.

Keywords: speech, religious, anchors

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد الرسول الأمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين أجمعين.

وبعد: فإن الدين الإسلامي هو دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده، أنزله عليهم ليكون خاتم الأديان، وجعله صالحاً لكل زمان ومكان، وأوجب على أتباعه الدعوة إلى هذا الدين وبيانه للناس، إلا أن الإشكال في الوسيلة التي يتم بها إيصال هذا الدين إلى الناس؛ إذ إن كثيراً ممن تصدروا للدعوة إليه لم يكونوا مؤهلين بما يكفي ليكونوا دعاة إلى هذا الدين العظيم، الأمر الذي أدى إلى وصول الدين بصورة مشوهة إلى الكثيرين من غير المسلمين، بل إن كثيراً من مفاهيم هذا الدين صارت غير واضحة لدى أتباعه أو تشوهت معالمها لديهم، الأمر الذي كانت له آثار سلبية على المجتمعات الإسلامية، من أهمها شيوع ثقافة عدم تقبل الآخر بدعوى الدفاع عن المذهب ونصرته، وظهور بعض الحركات المتطرفة التي نفذت عمليات مسلحة بدعوى إصلاح الحاكم ودفع ظلمه، وغير ذلك من الآثار الخطيرة.

كل هذا، وغيره، يوجب علينا البحث في الخطاب الديني الإسلامي لرسم صورة واضحة للخطاب الديني المنشود المؤهل لأن يكون الواجهة التي تُظهر هذا الدين العظيم بين أتباعه وغيرهم بصورته البهية التي أنزله الله عليها.

وهذا البحث مشاركة متواضعة مني لتحقيق هذا الهدف، وأسميته **(الخطاب الديني الإسلامي المعتدل، مفهومه وأهم مركزاته)**، وقسمته على مقدمة ومبحثين وخاتمة، وكما يأتي:

المقدمة: بينت فيها أهمية البحث والدافع إلى الكتابة فيه.

المبحث الأول: خصصته لشرح مفهوم الخطاب الديني الإسلامي وأهم أهدافه وغاياته.

المبحث الثاني: شرحت فيه أهم المرتكزات التي يقوم عليها الخطاب الديني الإسلامي المعتدل.

و أسأل الله تعالى أن يجعلني موفقاً في عملي هذا وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يغفر لي زلتي؛ إنه غفور رحيم.

المبحث الأول: الخطاب المعتدل، مفهومه وغاياته

المطلب الأول: مفهوم الخطاب الديني المعتدل:

الخطاب هو إيصال الأفكار إلى الناس بواسطة الكلام المفهوم(١)، والخطاب الديني هو الخطاب المنسوب إلى الدين، وهو وسيلة إيصال المعنى الذي قصده الشارع إلى المخاطب به، أو هو إيصال عقيدة الدين الإسلامي وأحكامه إلى الناس، وتبليغهم الرسالة التي أوحى الله تعالى بها إلى نبيه محمد ﷺ؛ لتنظيم علاقات البشر مع خالقهم ومع غيره ومع أنفسهم(٢).

إن الخطاب الديني يشمل مفهومين اثنين، هما:

المفهوم الأول: وهو مفهوم استعمله علماء أصول الفقه واصطلحوا على تسميته بالحكم الشرعي، وعرفوه بأنه خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين طلباً أو تخييراً أو وضعاً(٣). والخطاب بهذا المعنى من خصائصه أنه يتميز بصفة الوسطية، ذلك أنه يمثل أحكام الإسلام، وهو الدين الحنيف الذي أنزله الله رحمة للناس وتضمن تحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة، وقد جاءت نصوص كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تدل على وسطية الدين وسماحته، ويكفي هنا أن أسوق حديثاً صحيحاً يدل على هذا المعنى؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: (الحنيفية السمحة)(٤)، فدين الإسلام دين يدعو إلى السماحة واليسر، وهو وسط بين الغالي والجافي، وقد وصف الله تعالى دينه بأنه الصراط المستقيم، قال تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [سورة الفاتحة] والصراط المستقيم قيل: هو الإسلام، وقيل: هو القرآن، وقيل: هو السنة(٥)، ولا تنافي بين هذه الأقوال، فالإسلام هو ما جاء في الكتاب والسنة مما دلا عليه تصريحاً أو تلميحاً، وقد

---

(١) ينظر: التوسط في الخطاب الديني وأثره على السلم الاجتماعي للدكتور محمد مطلق عساف، بحث مقدم إلى مؤتمر (السلم الاجتماعي من منظور إسلامي)، كلية الشريعة، جامعة النجاح، فلسطين ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م: ٦ منشور على الرابط:
https://scholar.najah.edu/sites/default/files/conference-paper/ltwst-fy-lkhtb-ldyny-wthrh-l-lslm-ljtmy.pdf

(٢) ينظر: المصدر نفسه.

(٣) ينظر: المستصفى للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، تحقيق محمد عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م: ٤٥.

(٤) رواه أحمد في مسنده: ٤/١٦-١٧ برقم (٢١٠٧)، وقال فيه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه عليه: (صحيح لغيره).

(٥) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م: ١/ ١٧١-١٧٦.

وُصف بالاستقامة؛ لأن الاستقامة هي الاعتدال وعدم الميل إلى اتجاه على حساب اتجاه آخر(١)، وهذا هو وصف الدين الإسلامي الذي جاء به رسول الله محمد ﷺ، قال الدكتور الصلابي: (وقد بين الله لنا أن الصراط المستقيم هو منهج الوسط، إذ قال واصفاً الصراط المستقيم: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [سورة الفاتحة: ٧]، ومنهج المغضوب عليهم يمثل التفريط، بينما يمثل منهج الضالين الإفراط، فهما منهجان دائران بين الغلو والجفاء)(٢).

ومما يدل على وسطية الإسلام واعتدال أحكامه وملاءمتها للتطبيق في كل زمان ومكان وحال أن إحدى القواعد الشرعية التي قامت عليها الكثير من الأحكام الفقهية تنص على أن (المشقة تجلب التيسير)(٣)، والأدلة على هذه القاعدة العظيمة كثيرة حتى قال الشاطبي: (إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع)(٤) ومن الأدلة على هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥]. فالإسلام دين رحمة واعتدال ووسطية، فلا إفراط فيه ولا تفريط.

المفهوم الثاني: يمكن تعريف الخطاب بحسب هذا المفهوم بأنه كيفية أو وسيلة إيصال عقائد وأحكام هذا الدين إلى الناس، وهذا هو المقصود بالخطاب الديني في بحثي هذا، وهو بهذا المعنى قد يكون صادراً من مؤسسات دينية كالمجامع الفقهية التي تصدر الفتاوى الشرعية والبيانات التي تبين موقفها من الأحداث، وقد يكون صادراً من أفراد كالخطباء والكُتَّاب، وعلى هذا يشمل الخطاب الديني السلوك والأساليب التي تستخدم في تبليغ هذا الدين والدعوة إليه، كما يشمل المحاضرات والكتب الدعوية والشرعية، وكذلك البيانات والفتاوى الشرعية التي تصدرها المؤسسات والمراجع الدينية. والخطاب الديني بهذا المعنى له أهميته الكبيرة، وأهميته تأتي من تأثيره في شريحة كبيرة جداً من المجتمع، وهو عامل فاعل ومؤثر في بلورة وصياغة ثقافة المجتمع وتشكيل الوعي الجماعي، ومن هنا تم استغلاله سياسياً في حالات معاصرة كثيرة وأصبحت (عملية التحريك والحشد السياسي لأفراد هذه المجتمعات «تعبئتهم سياسياً» سهلة جداً

---

(١) قال الطبري: (أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن "الصراط المستقيم"، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه). جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١/ ١٧٠.

(٢) الوسطية في القرآن الكريم للدكتور علي محمد محمد الصلابي، مكتبة الصحابة، الإمارات، ومكتبة التابعين، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م: ١٨٧.

(٣) القواعد الفقهية الكبرى وما تفرع عنها للدكتور صالح بن غان السدلان، دار بلنسية، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ: ٢١٦.

(٤) الموافقات للإمام إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت٧٩٠هـ)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م: ١/٢٣١.

وذات فعالية أثناء الأزمات، وتحديداً الأزمات الخارجية وحالات العدوان الأجنبي... فالدين مثَّل الأداة الفعالة والمحركة للرأي العام...)[١].

وحقيقة توسط واعتدال الخطاب الديني بالمعنى الأخير هي: التزام صاحبه بالأسلوب المهذب والخلق الرفيع والتواضع، والفهم الصحيح للنصوص الشرعية، والبعد عن التعصب والعنصرية، والتزام الموضوعية والإخلاص في الدعوة إلى الدين[٢]، وهو عكس التطرف، ويظهر هذا جلياً في قول الشاطبي عندما ذكر آداب الفتيا أوجب حمل الناس على التوسط والاعتدال: (فعلى هذا يكون الميل إلى الرخص في الفتيا بإطلاق مضاداً للمشي على التوسط، كما أن الميل إلى التشديد مضادٌّ له أيضاً، وربما فهم بعض الناس أن ترك الترخص تشديدٌ، فلا يجعل بينهما وسطاً، وهذا غلط، والوسط هو معظم الشريعة وأم الكتاب، ومن تأمل موارد الأحكام بالاستقراء عرف ذلك. وأكثر مَنْ هذا شأنه مِنْ أهل الانتماء إلى العلم يتعلق بالخلاف الوارد في المسائل العلمية، بحيث يتحرى الفتوى بالقول الذي يوافق هوى المستفتي، بناءً منه على أن الفتوى بالقول المخالف لهواه تشديدٌ عليه وحَرَجٌ في حقه، وأن الخلاف إنما كان رحمة لهذا المعنى، وليس بين التشديد والتخفيف واسطة، وهذا قلب للمعنى المقصود في الشريعة، وقد تقدم أن اتباع الهوى ليس من المشقات التي يُتَرَخَّص بسببها، وأن الخلاف إنما هو رحمة من جهة أخرى، وأن الشريعة حَمْلٌ على التوسط لا على مطلق التخفيف وإلا لزم ارتفاع مطلق التكليف من حيث هو حَرَجٌ ومخالفٌ للهوى، ولا على مطلق التشديد؛ فليأخذ الموفق في هذا الموضوع حِذْرَهُ؛ فإنه مَزَلَّة قَدَمٍ على وضوح الأمر فيه)[٣].

المطلب الثاني: غايات الخطاب المعتدل:

يمكن أن نقول: إن الخطاب الديني غايته هي غاية الدعوة إلى دين الله تعالى نفسها، وقد لخصت لنا آية قرآنية غاية الدعوة؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة يوسف].

قال المراغي في تفسير هذه الآية: (أي قل أيها الرسول: هذه الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها، من توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الأوثان والأصنام هي سنتي

---

(١) دور الخطاب الديني في التعبئة السياسية في عهد الرئيس عبدالناصر (أزمتي ١٩٥٦، ١٩٦٧ نموذجاً) لعبدالناصر محمد سرور، بحث منشور في مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية ٢٠١١، المجلد ١٣، العدد ١ (A): ٧٢٢.

(٢) ينظر: ينظر: التوسط في الخطاب الديني وأثره على السلم الاجتماعي للدكتور محمد مطلق عساف: ٦-٧.

(٣) الموافقات ٥/ ٢٧٨.

ومنهاجي، وأنا على يقين مما أدعو إليه ولدىّ الحجة والبرهان على ما أقول، وكذلك يدعو إليها أيضا من اتبعني وآمن بي وصدقني)[١].

وقال العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي: (يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: «قُلْ» للناس «هَذِهِ سَبِيلِي» أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، «أَدْعُو إِلَى اللهِ» أي: أحثُّ الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغِّبهم في ذلك وأرهِّبهم مما يبعدهم عنه. ومع هذا فأنا «عَلَى بَصِيرَةٍ» من ديني، أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية)[٢].

فالخطاب الديني الإسلامي هو دعوة الناس إلى ما يقربهم إلى الله تعالى وتعريفهم بدينه الذي به صلاح دنياهم وأخراهم، هذه هي الغاية التي يجب أن يضعها نصب عينيه كل من تصدر للخطاب الديني الإسلامي، ويمكن تفصيل هذه الغاية إلى غايات فرعية منها[٣]:

١. **بيان الحق وإقامة الحجة عليه**: هذا هو الهدف الأول للخطاب الإسلامي، فقد أوجب الله تعالى على أصحاب الحق نشر الحق وإقامة الحجة على الناس، وهذا منهج قرآني ثابت؛ إذ قام الخطاب القرآني على بيان الحق بحججه، ومطالبة كل من جاء برأي بالحجة والبرهان، كما قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٤] وأنكر على المشركين الذين ابتدعوا ديناً بدون حجة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة المؤمنون]، والعجيب في التعبير القرآني أنه سمى الدليل والبرهان سلطاناً، وأرى في هذه التسمية إشارة إلى تشبيه البرهان والحجة بالسلطان الحاكم الذي ينصاع الناس إلى حكمه، فكذلك الحجة والبرهان يجب أن ينصاع لهما الناس ويتبعوهما، وفيما يأتي نصوص توضح ذلك: قال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [سورة آل عمران: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة يونس]، وأوضح سبحانه أنه أيَّدَ أنبياءه

(١) تفسير المراغي ٥٢/١٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبدالرحمن بن ناصر السعدي: ٤٠٦.

(٣) سأتكلم عن هذه الغايات باختصار شديد؛ لأن المقام لا يحتمل تفصيل الكلام فيها، وسأقتصر على ما يرتبط بموضوع البحث.

بالحجة الباهرة والبرهان القاطع؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦﴾ [سورة هود]، وقال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: ٨٣].

فالخطاب الإسلامي قائم على الحجة والبرهان والإقناع؛ لأنه يحترم العقل الإنساني، ويقيم له وزناً كبيراً؛ فهو قائم على الإقناع العقلي وليس على التهييج العاطفي الذي يُغَيَّب فيه العقل، مع أنه لم يهمل خطاب العاطفة لتوجيهها بما يجعلها متلائمة مع العقل كما هو واضح في الوعظ القائم في كثير من النصوص الواردة فيه على الترغيب والترهيب.

٢. **تعريف الناس بدينهم**: وهذه الغاية مبنية على الغاية الأولى، فالخطاب الديني الإسلامي قد يوجه إلى غير المسلمين؛ لبيان الحق لهم وإثباته بالحجة والبرهان الواضح، وقد يوجه إلى المسلمين لغايات كثيرة، منها: تعريفهم بدينه وتوضيح مفاهيمه لهم، ولاسيما عند اختلال الفهم لدى المجتمع المسلم، قال تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [سورة النحل].

٣. **تشخيص السلبيات في المجتمع وبيان سبل معالجتها**: وهذه غاية مهمة، فإن من يتولى الخطاب الديني يجب أن يكون خطابه متصلاً بالمجتمع يعالج أخطاءه ويصحح مساره، ولذلك عليه أن يتعرف على المتجمع الذي يخاطبه وأن يكون متصلاً به غير منقطع عنه ليشخص ما فيه من سلبيات لعلاجها معالجة إسلامية صحيحة.

٤. **مواكبة الأحداث المستجدة التي تعصف بالمجتمعات الإسلامية**: إن الخطاب الديني يجب أن يكون معايشاً للمجتمع المعاصر، فمن خصائص الدين الإسلامي أنه رباني المصدر، جعله الله تعالى خاتم الأديان صالحاً للتطبيق في كل زمان ومكان حتى قيام الساعة، فعلى من يتولى الخطاب الديني الإسلامي أن يضع هذا الأمر نصب عينيه، وأن يواكب ما يواجهه المجتمع من أحداث لرسم صورة واضحة للموقف الإسلامي الصحيح منها، وهذا إحدى دعائم التجديد الذي يجب ترسيخه في الخطاب الديني ليكون خطاباً حيوياً مؤثراً، وإلا كان خطاباً جامداً لا أثر له ولا ارتباط له بالمجتمع الذي يُلقى فيه.

المبحث الثاني: مرتكزات الخطاب المعتدل

للخطاب المتوسط المعتدل مقومات ومرتكزات، منها:

أولاً: التزام الحق والموضوعية: إن الأساس الذي يجب أن يُبنى عليه أي حوار مع المخالف هو نصرة الحق واتباعه وإن كان الحق مع المخالف؛ لذلك لابد لمن يتصدر المؤسسات الدينية ولمن يعتلي المنابر ويظهر في القنوات الإعلامية المختلفة، لابد لجميع هؤلاء مراعاة هذا المقصد، فلابد وأن يكون حاضراً في أذهانهم، فلا يكون همهم نصرة آرائهم ومعتقداتهم ومذاهبهم، ولذلك نلاحظ أن القرآن الكريم عندما خاطب أهل الكتاب قال لهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]، فأمرهم بقول الحق ونهاهم عن مخالفته، وكأنه يضع بذلك قاعدة للحوار معهم خلاصتها: يجب تحري الحق في الحوار والوصول إليه بالحجج الساطعة والبراهين الواضحة، فلا مجال للأهواء ونصرة النفس في هذا الحوار.

وهذا يجب أن يكون منطلق الحوار بين جميع المختلفين في كل زمان ومكان، فالحوار هو من التعاون على معرفة الحق واتباعه، هكذا يجب أن يكون القصد في الخطاب الديني، وإذا صحت هذه النية وصدق هذا القصد ظهرت آثاره في الخطاب بانتقاء الألفاظ التي لا تجرح المقابل ولا تنتقص منه ولا من عقيدته ومذهبه ورأيه، وشاعت روح التنازل والتراجع عن الرأي إذا بانَ خطؤه لدى صاحبه، وبهذا يتم القضاء على التعصب للمذاهب والآراء التي كادت أن تمزق نسيج المجتمع المسلم في بعض البلدان.

إن الشعار الذي يجب أن يرفع في الحوار بين الجهات المختلفة هو: (كلامنا صواب يحتمل الخطأ وكلام غيرنا خطأ يحتمل الصواب)[1]، وهذا بخلاف المنهج الفرعوني في الحوار وهو الدخول في الحوار بتوطين النفس على أن الحق معي وأن غيري على الباطل قال الله تعالى حكاية عن أتباع فرعون: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤٠﴾ [سورة الشعراء]، فهؤلاء قبلوا المناظرة موطنين أنفسهم أن الحق معهم، وأنهم هم الغالبون وأن المقابل سيندحر، وهذا ترك أثرين: الأول: التعالي في خطاب الآخر، والثاني: عدم اتباع الحق ومعاداة من رجع إليه... إلخ، فلا يجوز الدخول في مجادلات بمقررات سابقة وتبييت النية بعدم ترك الرأي الشخصي في جميع الأحوال، وهذا الشعور من شأنه أن يجعل الحوار عبارة عن حرب كلامية نصرةً للنفس لا للحق ووصولاً إلى استعباد الآخرين وإرضاءً لشهوة الظهور والشهرة.

---

(١) لابد من الإشارة هنا إلى أن هذا الكلام في غير المسائل القطعية التي لا اجتهاد فيها والتي يسوغ الاختلاف فيها، وليس هذا محل تفصيله.

ثانياً: المعرفة بحال المخاطَبين: والمقصود بهذه المعرفة معرفة حال المخاطبين من الناحية النفسية والإحاطة بالظروف التي تحيط بهم، فلا غنى لمن يتولى الخطاب الديني عن هذه المعرفة؛ فمثلاً الخطاب في حالة الحرب والأزمات ينبغي أن يكون مختلفاً عنه في حالات السلم والرخاء، ففي حالة الحروب والأزمات يغلب على الناس التشنج وسوء الظنون، وقد يحملون الخطاب على غير وجهه؛ لذلك لابد من مراعاة هذا الأمر، فلا يتم التطرق إلى موضوعات من شأنها أن تزيد من حالة التشنج، كما يجب انتقاء الألفاظ بعناية بحيث لا تحتمل أوجهاً متعددة من التفسير.

ومن الأخطاء التي وقع فيها الكثير من الدعاة أنهم نقلوا فتاوى لعلماء أفتوها في بلدان معينة إلى بلدان تختلف ظروفها تماماً عن تلك البلدان التي ينتمي إليها أولئك العلماء أصحاب الفتاوى، ومن المعلوم أن المفتي لكي تكون فتواه صحيحة يجب عليه أن يحقق أمرين:

١. معرفة الحكم الشرعي المتعلق بالمسألة التي يتناولها.

٢. معرفة واقع السائل؛ أينطبق هذا الحكم عليه أم لا؟

وفي ذلك يقول ابن قيم الجوزية: (ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات، حتى يحيط به علمًا. والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حُكْم اللَّه الذي حَكَم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع. ثم يطبق أحدهما على الآخر... فالعالم مَنْ يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم اللَّه ورسوله، كما توصل شاهد يوسف بشق القميص من دُبُرٍ إلى معرفة براءته وصدقه... ومن تأَمَّل الشريعة وقضايا الصحابة وجدها طافحة بهذا، ومَنْ سلك غير هذا أضاع على الناس حقوقهم، ونسبه إلى الشريعة التي بعث الله بها رسوله)[(١)].

ومن التطبيقات العملية لهذه القضية المهمة أنه يجب مراعاة التنوع المذهبي في البلد، فمثلاً في بلد يتسم بتنوع مذاهب أبنائه كما هو الحال في العراق لابد أن يراعى ذلك في الفتاوى والبيانات التي تصدرها المؤسسات الدينية فيه، وتظهر أهمية ذلك في المناسبات العامة كالبيانات المتعلقة بإثبات الرؤية الشرعية لهلالي رمضان وعيد الفطر، فعندما تصدر مؤسسة دينية تمثل مذهباً معيناً بياناً بثبوت رؤية هلال رمضان أو عدم ثبوته لابد أن يتضمن البيان الإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون لهذا الموضوع أثر في الاختلاف والتشاحن بين أبناء المجتمع، فمن ثبتت لديه رؤية الهلال وجب عليه الصوم، ومن لم تثبت لديه لا يجب عليه الصوم، طالما الجميع يسعون

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ: ١/١٦٥-١٦٦.

للعمل بحديث النبي ﷺ: (صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته...)[١]، فلا ينبغي للصائم أن ينكر على من أفطر اتباعاً لمؤسسة دينية أخرى، كما لا ينبغي للمفطر أن ينكر على من صام اتباعاً لمؤسسة دينية أخرى.

إن تضمين البيان لهذه الإشارة من شأنها أن تنفي حالة الشحن الطائفي الذي ينشط في مثل هذه المناسبات بسبب ظهور اختلاف الآراء، لأن من شأن ظهور اختلاف الآراء أن يثير حالة من التشنج لدى العامة من أتباع المذاهب بسبب عدم امتلاك الكثيرين منهم ثقافة تقبل الآخر، فتضمين البيانات الصادرة من المؤسسات الدينية لهذه الإشارة من شأنه أن يشيع ثقافة تقبل الآخر لدى العامة من أبناء المذاهب المختلفة داخل المجتمع الواحد.

من هنا ينبغي لمن تصدر للإفتاء في المنتديات العامة أو في الإعلام ينبغي له أن لا يقتصر في فتاواه على ذكر مذهب واحد في المسائل الخلافية، ذلك أن الإفتاء على مذهب واحد قد يشكل انطباعاً لدى المتلقي أنه لا يوجد رأي أو مذهب آخر في المسألة ولذلك فعندما يرى من يخالف هذه الفتوى يظنه مخطئاً وقد يحدث ذلك تشنجاً لديه اتجاه المخالفين لكونهم مخالفين للدين متبعين لأهوائهم والحال أنهم متبعون لمذهب معتبر آخر، وعليه أن يشير في فتاواه أنه لا ينبغي الإنكار على من يتبع أياً من المذاهب التي يذكرها، وسيأتي مزيد بيان لهذه القضية عند ذكر القاعدة الفقهية التي أصلها علماؤنا (لا إنكار في مسائل الاجتهاد)، إن شاء الله تعالى.

ويمكن لنا أن نستدل على ضرورة معرفة صاحب الخطاب الديني بحال الناس وواقعهم بقول موسى وهارون عليهما السلام عندما أمرهما الله تعالى بدعوة فرعون إلى دين الله: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥﴾ [طه]، وفي هذا إشارة إلى أن موسى وهارون عليهما السلام كانا على معرفة تامة بفرعون ولديهما تصور كامل لردة فعله التي يمكن أن تظهر لدى دعوتهما له، وذلك نتيجة خبرتهما الطويلة معه ولمعايشتهما له، من هنا لابد لمن يتصدر للخطاب الديني أن يكون على دراية كبيرة واستيعاب عالٍ لمجتمعه وأحوال أفراده ومذاهبهم ومستوياتهم الفكرية. ومن دون هذه المعرفة قد يكون للخطاب الديني مردود عكسي سلبي بين أبناء المجتمع.

ثالثاً: أن يكون هدف الخطاب إرشاد المخاطَبين وإصلاحهم: هذا من المرتكزات المهمة التي يرتكز عليها الخطاب الديني الإسلامي المعتدل، فيجب على الداعية المسلم الذي يتولى الخطاب الديني على المنابر أو وسائل الإعلام أو غيرها أن يكون هدفه الذي يرمي إليه ويوجه اهتمامه نحوه هداية الناس وإصلاحهم وبناء المجتمع، لا يبتغي بذلك حظاً من حظوظ النفس ولا طلباً للرئاسة والجاه ولا انتصاراً لطائفته ولا غيرها من الحظوظ الضيقة العاجلة.

(١) رواه البخاري في صحيحه: ٢٧/٣ برقم (١٩٠٩)، ومسلم في صحيحه: ٧٦٢/٢ برقم (١٠٨١).

إن من كان هدفه إرشاد الناس وبناء مجتمع صالح فإنه بلا شك سينتقي ألفاظه ويترفق بالمخاطَبين، وقد أمر الله تعالى نبيه موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يترفقا بأشدِّ الناس طغياناً «فرعون»، فقال لهما: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة طه]، وإنني ألمس من هذا الأمر الرباني نوعاً من التلازم بين استجابة المخاطَبين للدعوة وبين الرفق في خطابهم، فقوله تعالى ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ كالتعليل للأمر بالرفق في خطاب فرعون. كما إنني أرى أن القول اللين يفسره الحديث الصحيح الذي رواه أبو موسى الأشعري ﷺ، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»(١)، قال بدر الدين العيني في شرح هذا الحديث: (والمعنى: وبشروا الناس أو المؤمنين بفضل الله تعالى وثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته، وكذا المعنى في قوله: «ولا تنفروا» يعني: بذكر التخويف وأنواع الوعيد، فيتألف من قرب إسلامه بترك التشديد عليهم، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ وتاب من المعاصي؛ يتلطف بجميعهم بأنواع الطاعة قليلاً قليلاً، كما كانت أمور الإسلام على التدريج في التكليف شيئاً بعد شيء؛ لأنه متى يسر على الداخل في الطاعة المريد للدخول فيها سَهُلَتْ عليه وتزايد فيها غالباً، ومتى عسر عليه أَوْشَكَ أن لا يدخل فيها، وإن دخل أَوْشَكَ أن لا يدوم أو لا يستحملها. وفيه الأمر للولاة بالرفق، وهذا الحديث من جوامع الكلم لاشتماله على خيري الدنيا والآخرة، لأن الدنيا دار الأعمال والآخرة دار الجزاء، فأمر رسول الله ﷺ فيما يتعلق بالدنيا بالتسهيل، وفيما يتعلق بالآخرة بالوعد بالخير والإخبار بالسرور تحقيقاً لكونه رحمة للعالمين في الدارين)(٢).

ويدخل في لين الكلام والرفق بالمخاطَبين مداراتهم، قال ابن حجر العسقلاني: (قال بن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة، وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوب إليها والمداهنة محرمة، والفرق أن المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه والإنكار عليه بلطف القول والفعل ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك)(٣).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ١٣٥٨/٣ برقم (١٧٣٢)، ورواه البخاري في صحيحه: ٤٥/٢ [مع عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني] برقم (٦٩) بنحوه من حديث أنس ﷺ.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني: ٤٧/٢.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني: ١٠/ ٥٢٨-٥٢٩.

ولقد صرح الله تعالى في محكم كتابه أن الغلظة والشدة في الخطاب من شأنها تنفير الناس وتفريقهم، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

رابعاً: قوة الحجة: من مقومات الاعتدال في الخطاب الديني أن يكون خطاباً منطقياً مستنداً على أدلة وحجج قوية مقنعة، ولذلك نلاحظ أن الله تعالى عندما أرسل موسى وأخاه هارون عليهما السلام قال لهما: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [سورة طه: ٤٧]، فأمرهما بأن يبينا مصدر رسالتهما وأن أساس رسالتهما من رب فرعون وأن لديهما آية ودليلاً على صدق ادعائهما وصحة رسالتهما، وقد كانت الأدلة التي جاءا بها مقنعة لا يمكن ردها بدليل أن الله تعالى حكى عن فرعون وملئه أنهم كانوا مقتنعين بالمعجزات التي جاء بها موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [سورة النمل: ١٤]، فكأنهما انطلقا في كلامهما من قاعدة مشتركة بينهما وبين من يقابلهما – أعني فرعون وملأه–.

إن وضوح الأدلة وصراحة الحجة وقوة البرهان من شأنها أن تزرع الثقة بين المتخاطبين وتجعل الخطاب مثمراً يُنْتِج اتفاقاً في الرؤى؛ فقد فطر الله تعالى الناس على الإذعان إلى الحجج الساطعة والبراهين المقنعة؛ لذلك قلما تخاطب إنساناً بالأدلة والبراهين المقنعة إلا ويسلم لما تقوله ويذعن للحق الذي تريد إيصاله إليه، إلا من فسدت فطرته فأولئك من الجاهلين الذين أمرنا أن نعرض عنهم كما قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [سورة الأعراف].

ومن شأن قوة حجة المتكلم أنها تجعل المخاطَب يعتقد أنه يحترمه ويحترم عقله وأنه لا يتكلم من منطلق التعالي وفرض الرأي على المقابل، وهذا من شأنه إشاعة روح التسامح والتنازل عن الآراء الشخصية والقبول بالحق، وتلقي كلام المقابل بأريحية بعيداً عن التشنج والتعصب، وهذا كله متأتٍ من الثقة المتبادلة بين المتخاطبين، تلك الثقة التي تعد الأساس الأول في الخطاب المعتدل البعيد عن التشنج؛ لأنها تعني أن كلاً من المتخاطبين يثق في أن المقابل لا يريد إلا بيان الحق واتباعه، ولذلك عندما تكلم الله تعالى عن القرآن وصفه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [سورة البقرة]، فوصفه بأنه الكتاب الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم قال: (لا ريب فيه) والريب هو الشك في مصدره وفي حقية دعوته، إلا أن بين الريب والشك فرقاً دقيقاً، فالريب هو شك مع تهمة[1]، أي: اتهام المقابل بتعمد الخطأ ومحاولة

(١) قال الإمام فخر الدين الرازي: (الريب قريب من الشك وفيه زيادة، كأنه ظنٌّ سوءٍ؛ تقول: رابني أمر فلان: إذا ظننت به سوءاً)، التفسير الكبير لفخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ: ٢٦٥/٢. وينظر: حاشية الشهاب لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ)، دار صادر، بيروت: ١٨٩/١.

إضلال المقابل، فدفع الله تعالى ذلك عن كتابه العظيم الذي يخاطب به الناس كافة على اختلاف عقائدهم ومشاربهم؛ لأن الأساس الأول الذي يجعل الكلام مقبولاً هو ثقة المخاطَبين بالمتكلم وبصدقه وحسن نيته في كلامه وأنه لا يريد الانتصار لنفسه أو لرأيه ومعتقده.

ومما يرتبط بموضوع قوة الحجة قاعدة مهمة من قواعد الحوار والخطاب الديني الإسلامي أصلها علماؤنا، وهي (لا إنكار في مسائل الاجتهاد)[١]؛ وذلك إذا كانت أدلة هذه المسائل متكافئة لصالح الآراء المتعددة ولا يمكن ترجيح بعضها على بعض، فلا ينبغي الإنكار على المخالف في هذه الحالة ودعوته للرجوع عن رأيه؛ لأن من شأن هذا الأمر أن يثير لدى المقابل شعوراً بأن المتكلم يريد نصرة رأيه ويريد أن يكون غيره تابعاً له وغير ذلك من الظنون السيئة التي تقرر الإحساس بعدم الثقة بين المتحاورين أو بين المتكلم والسامع، وهذا يسبب تخلخلاً في نسيج المتجمع الواحد ويعزز التعصب المذموم للمذهب.

وعلى هذا لا ينبغي التعصب للآراء الاجتهادية التي لا توجد فيها نصوص قاطعة وحجج واضحة، بل لا ينبغي التطرق لهذه الموضوعات في الخطاب الموجه للعموم كالخطب المنبرية والبرامج الإعلامية، وإذا تم التطرق إليها فلا ينبغي الاقتصار على ذكر رأي مذهب واحد دون رأي المذاهب الأخرى، على أن يُوَضَّح أن اختلاف هذه الآراء هو من الاختلاف السائغ ولا توجد أدلة قطعية تؤيد أياً منها، كما سبق ذكره في المرتكز الثاني من مرتكزات الخطاب الديني المعتدل.

خامساً: مراعاة مقاصد الشريعة:

إن من أهم مقومات الخطاب المعتدل مراعاة مقاصد الشريعة فيه؛ من ضرورة الحفاظ على وحدة المجتمع المسلم وعدم التطرق إلى ما يؤثر سلباً على هذه الوحدة، لذلك أصل العلماء قاعدة مهمة تنص على أنه (ليس كل ما يعلم يقال)[٢]، وقد استندوا في هذه القاعدة على نصوص شرعية.

---

(١) ألف الدكتور عبدالسلام مقبل المجيدي كتاباً مهماً في هذه القاعدة أسماه (لا إنكار في مسائل الاجتهاد)) طبعته مجلة الوعي الإسلامي التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت.

(٢) ينظر في هذه القاعدة: مفتاح العلوم للسكاكي: ١٦٨. وروى البخاري عن علي ﷺ أنه قال: (حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله؟!)، [صحيح البخاي مع فتح الباري ٢٢٥/١] قال ابن حجر: (وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يُذكر عند العامة... وممن كره التحدث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان) [المصدر نفسه].

قال الشيخ سعيد حوى: (وهذان النصان[١] يؤكدان فكرة تأديب الشارع للمسلم أن يفوض في أمر الصغار لما يترتب على ذلك من حكم، ومن أمثال هذا أخذ العلماء فكرة أدب الوعظ وأدب العلم، فأدب الواعظ ألا يدخل في تفصيلات تخفف من قوة التأثير والتأثر أو تؤدي إلى إثارة أسئلة عند العامة أو تؤدي إلى تشويش عقائد العامة أو تستدرجهم لمواطن فتنة في الرأي أو في العمل، وأدب العالم مع طلاب العلم أن يدرجهم في التعليم حتى يوصلهم إلى أن يفهموا دقائق العلوم وعويصات المسائل. فأدب الواعظ: ليس كل ما يعلم يقال، وأدب العالم مع طلاب العلم الذين يؤهلون للإمامة في الدين أن يقول لهم كل شيء مع ملاحظة التدرج، وتشهد لذلك كثير من نصوص السنة)[٢].

نلحظ في كلام سعيد حوى أنه فرق بين خطاب الواعظ وبين خطاب المعلم، فالواعظ يخاطب بكلامه شرائح مختلفة في ثقافتها ومتفاوتة في فهمها ومتعددة في انتماءاتها لذلك لابد من مراعاة هذا التنوع، ومن أهم ما يجب مراعاته هو قاعدة (ليس كل ما يعلم يقال)، أما المعلم فأمره سهل هين نظراً لأنه يخاطب شريحة صغيرة متقاربة الفهم ومتحدة في الانتماء ولا توجد فروقات كبيرة بين أفرادها، كما أنه يمكن أن يحدث نقاش في حلقته العلمية يتم فيه حل أي خلل في فهم كلامه.

وقال الشيخ وليد السعيدان: (فإن رأى الداعية إلى الله تعالى أن المصلحة في السكوت عن نوع من العلم أو في مسألة من المسائل، وأن الحكمة الدعوية تقتضي منه السكوت في هذه الحالة، فالمشروع له أن يسكت، وليس لأنه يعلم هذه المسألة فلابد أن يبينها؛ فإن العلم بالشيء أمر ووجوب بلاغه أمر آخر، فإن البلاغ لابد وأن يربط بتحقيق المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها... فإبلاغ العلم والدعوة إلى الله تعالى لابد وأن تكون مرتبطة بتحقيق المصالح ودفع المفاسد، ولذلك فقد نهى النبي ﷺ معاذاً عن التحديث بما حدثه به في شأن فضل كلمة التوحيد، لما قال له "حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن

---

(١) يعني حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال حين سئل عن أولاد المشركين: (الله إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين). أخرجه البخاري في صحيحه: ٢/١٠٠ برقم (١٣٨٣) ومسلم في صحيحه ٤/٢٠٤٨ برقم (٢٦٥٨)، وحديث عائشة رضي الله عنها، قالت: توفي صبي، فقلت: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله ﷺ: (أو لا تدرين أن الله خلق الجنة، وخلق النار، فخلق لهذه أهلاً ولهذه أهلا) رواه مسلم في صحيح: ٤/٢٠٥٠ برقم (٢٦٦٢).

(٢) الأساس في السنة وفقهها، العقائد الإسلامية للشيخ سعيد حوى (ت١٤٠٩هـ)، دار السلام، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م: ١/١٠٤.

لا يعذب من لا يشرك به شيئا" فقال معاذ: أفلا أبشر الناس؟ قال: "لا تبشرهم فيتكلوا" متفق عليه(١)، فلما كان إخبار الناس بهذا الأمر فيه نوع مفسدة مقابلة صار من الحكمة الدعوية السكوت عنه وعدم إخبار الناس، وذلك خوفاً من اتِّكالهم على هذا الأمر وترك العمل أو التساهل فيه، مع أن إبلاغ العلم من الواجبات المتحتمات، ولكن لما كانت الدعوة بإبلاغه مرهونة بتحقيق المصالح ودفع المفاسد صار من الحكمة السكوت عنه؛ لأنه ليس كل ما يعلم يقال، ولكل مقام مقال)(٢).

من هنا تظهر لنا خطورة عمل الواعظين ومن يرتقون المنابر الدينية على اختلاف انتماءاتهم المذهبية والعقائدية، وضرورة أن يكون لديهم شعور بالمسؤولية على وحدة المجتمع وتآلف أبنائه، وضرورة عدم طرح الموضوعات التي من شأنها أن تثير الحساسية بين أبناء المجتمع أو تضعضع اللحمة المجتمعية، وقد ظهرت في الآونة الأخيرة قنوات فضائية مخصصة لمناقشة المذاهب الإسلامية وعرض المناظرات بين علماء هذه المذاهب، بل وصل الأمر ببعض القنوات أنها تعرض برامج تضمنت التهجم على المذاهب الإسلامية، الأمر الذي ساعد على إشاعة روح الكراهية والتعصب المذهبي المذموم بين أفراد المجتمعات في الدول العربية والإسلامية، وقد ظهر هذا جلياً في بعض الأحداث بين أفراد المجتمع الواحد الذين ينتمون إلى المذهب السني والمذهب الشيعي في بعض البلدان العربية والإسلامية من الاغتيالات والقتل على الهوية واستهداف دور العبادة، بل تعدى الأمر ذلك فاستغل بعض السياسيين والأحزاب السياسية الشحنَ الطائفي الموجود في مجتمعاتهم ووظفوه للترويج لأحزابهم والدعايات الانتخابية ونجحوا في ذلك إلى حد ما، مما تسبب في فوز بعض الفاسدين والنفعيين بمقاعد في البرلمانات والمؤسسات التشريعية والتنفيذية، وهذا جر إلى ظهور الفساد الإداري والمالي وغير ذلك.

لذلك لابد من التوجه بجدية إلى دراسة الخطاب الديني المنتشر اليوم على المنابر الدينية والمؤسسات الإعلامية، وتشخيص حالات التطرف والغلو وتسقيط الآخرين لعلاجها ومنعها، وتوجيه الوعاظ إلى أنه ليس كل ما يعلم يقال وأن الحفاظ على الوحدة الوطنية وعلى قوة الأواصر بين أبناء المجتمع الواحد هو مقصد شرعي لابد من مراعاته وعدم طرح الموضوعات التي من شأنها أن تؤثر سلباً على ذلك.

---

(١) صحيح البخاري: ٢٩/٤ برقم (٢٨٥٦)، وصحيح مسلم: ٥٨/١ برقم (٤٩).

(٢) مقال للشيخ وليد السعيدان في موقع ملتقى أهل الحديث الإلكتروني على الرابط:
https://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=250643

لقد أولى العلماءُ الحفاظَ على وحدة المجتمع المسلم عنايةً بالغةً، حتى أنهم قرروا ترك السنن والمستحبات إذا كانت تؤدي إلى الفرقة، قال ابن تيمية: (يستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك هذه المستحبات؛ **لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا**، كما ترك النبي ﷺ تغيير بناء البيت لما في إبقائه من تأليف القلوب، وكما أنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة في السفر ثم صلى خلفه متماً، وقال: الخلاف شر)[1]، فتأمل قوله (لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم...).

سادساً: إنزال الناس منازلهم: هذا المرتكز مكمل للذي قبله، فالأول يتعلق في المعلومات التي ممكن أن تذكر في الخطاب الديني، أما هذا فيتعلق بأسلوب الخطاب في إيصال المعلومات.

فالناس أصناف؛ منهم المحب للخير الطالب للحق الساعي لمعرفته، ومنهم المُؤْثِر للشر والباطل المتكبر الذي لا يقبل بالحق، ولكل من هؤلاء أسلوب في الخطاب يليق به، ولنا في قصة موسى عليه السلام مع فرعون خير مثال على ذلك، فعندما أرسل الله تعالى موسى وأخاه هارون إلى فرعون قال لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة طه]، في أول الأمر أمرهما باللين والرفق بفرعون؛ لأنه لم يظهر منه موقف سلبي تجاه دعوتها بعد، ولكن لما ظهر عناده وجحده لدعوة موسى عليه السلام مع يقينه بحقيتها كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: ١٣ – ١٤]، لما كان هذا موقف فرعون من الدعوة ظهر لموسى عليه السلام موقف آخر؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء] فانظر إلى الغلظة في خطاب موسى عليه السلام لفرعون الذي ظهر عناده وطغى ظلمه وفَشَا فساده، فاقتضى الموقف أن يُخاطَبَ بما يناسب حاله وموقفه.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ: ٢٢/ ٤٠٧.

سادساً: وضوح الرؤية وشفافية المقاصد: من مقومات الاعتدال في الخطاب الديني وضوح رؤية المتكلم وشفافية المقاصد التي يرمي إليها في كلامه، كي يفهم المخاطَبون ماذا يريد منهم، ولذلك لما أرسل الله تعالى موسى وهارون إلى فرعون أمرهما أن يقولا له: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [سورة طه: ٤٧] فأمرهما أن يبينا لفرعون ماذا يريدان منه وفحوى رسالتهما بشكل مباشر وبأسلوب شفاف لا غموض فيه ولا يدع مجالاً لسوء الفهم لدى المخاطَب.

إن وضوح رؤية وأهداف المتكلم من كلامه لدى المخاطَب من شأنها أن تجعل المخاطَب يعلم جيداً ماذا يريد المتكلم بكلامه وما هي الأهداف التي يحققها وما الذي يراد منه أن يقوم به، فلا تذهب به الظنون أو الأوهام يميناً أو يساراً، وهذا يؤدي بدوره إلى أن يكون الخطاب مثمراً من الممكن أن ينتج توافقاً بين المتخاطبين.

الخاتمة

بعد أن منَّ الله تعالى عليَّ بإتمام بحثي هذا يطيب لي أن أثبت أهم ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات، فأقول وبالله التوفيق:

١. الحرص على تأليف القلوب وإصلاح ذات البين وجمع الكلمة يجب أن يكون حاضراً في ذهن من يتولى الخطاب الديني الإسلامي.
٢. السعي إلى أن يتولى الخطاب الديني الإسلامي مؤسسات ومجامع دينية، وعدم توليه من قبل أفراد أو أن تشرف هذه المؤسسات على الخطاب الموجه من قبل الأفراد، وذلك بغية الوصول إلى خطاب ناضج واعٍ متكامل، ومعلوم أن الجهد الجماعي يكون أكثر نضجاً وأعلى وعياً من الجهد الفردي الذي قد تغلب عليه المصالح الشخصية والحظوظ النفسية.
٣. يجب تحديد مفهوم الخطاب الديني الإسلامي المراد اعتداله ووسطيته، فالمقصود به الوسائل المتبعة في إيصال الدين الإسلامي إلى الناس، وهو يشمل ما يقوم به الخطباء وعلماء الدين والمجامع الفقهية والمراجع الدينية التي تتولى إصدار الفتاوى والبيانات الشرعية.
٤. عدم التطرق في المنتديات العامة ووسائل الإعلام إلى المسائل الخلافية التي من شأنها تعزيز الشعور الطائفي والانتماء المذهبي.
٥. العمل على إشاعة ثقافة تقبل الآخر لدى عامة الناس، ويكون ذلك بوسائل كثيرة، منها عدم إصدار الفتاوى في المسائل الخلافية على وفق مذهب واحد وإهمال بقية المذاهب، وأرى أنه لابد من تضمين الفتاوى [في حالة الإفتاء على وفق مذهب واحد] الإشارة إلى أن في المسألة خلافاً معتبراً بين أئمة الإسلام ولا ينبغي الإنكار على من اتبع رأياً مخالفاً طالما قال بهذا الرأي إمام من أئمة المسلمين.
٦. عدم إقحام الدين في التعبئة السياسية والترويج للأحزاب والجهات السياسية في الانتخابات، وذلك لما لهذا الأمر من آثار سلبية تزيد من الشحن الطائفي بين أبناء المجتمع الواحد؛ نعم على المراجع والمؤسسات الدينية حث أبناء المجتمع على المشاركة في الانتخابات وتحمل مسؤولية انتخاب الأصلح، دون التثقيف لجهات أو شخصيات سياسية معينة.

٧. ضرورة توجُّه كليات العلوم الإسلامية لإقامة الندوات العلمية والمحاضرات التثقيفية بخصوص الموضوعات المرتبطة بالخطاب الإسلامي المعتدل، ومن بين هذه الموضوعات:

أ. آداب الخلاف وثقافة تقبل الآخر في الإسلام.

ب. الإنكار في المسائل الخلافية الاجتهادية.

ت. إدارة الخطب المنبرية.

ث. الثابت والمتغير في الإسلام.

ج. علم آداب البحث والمناظرة، وهذا علم عظيم قعَّد علماؤنا قواعده وأصَّلوا أصوله لضبط الحوار والجدال الهادئ البناء، ذلكم العلم الذي يُعد بحق مفخرة من مفاخر حضارتنا الإسلامية، واليوم مع الأسف يجهله الكثير من المتخصصين في العلوم الإسلامية فضلاً عن عامة المسلمين.

وهذا أوان لملمة أوراقي بعد أن أكملتُ رحلتي الماتعة مع هذا الموضوع المهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم

١. الأساس في السنة وفقهها، العقائد الإسلامية: للشيخ سعيد حوى (ت١٤٠٩هـ)، دار السلام، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٢. إعلام الموقعين عن رب العالمين: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ.

٣. التفسير الكبير: لفخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٤. التوسط في الخطاب الديني وأثره على السلم الاجتماعي: للدكتور محمد مطلق عساف، بحث مقدم إلى مؤتمر (السلم الاجتماعي من منظور إسلامي)، كلية الشريعة، جامعة النجاح، فلسطين ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦هـ)، تحقيق عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٧. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي (ت١٠٦٩هـ)، دار صادر، بيروت.

٨. دور الخطاب الديني في التعبئة السياسية في عهد الرئيس عبدالناصر (أزمتي ١٩٥٦، ١٩٦٧ نموذجاً): لعبدالناصر محمد سرور، بحث منشور في مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية ٢٠١١، المجلد ١٣، العدد ١ (A).

٩. الصحيح: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٠. الصحيح: للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١. عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لبدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
١٣. القواعد الفقهية الكبرى وما تفرع عنها: للدكتور صالح بن غان السدلان، دار بلنسية، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ.
١٤. مجموع فتاوى ابن تيمية: جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ.
١٥. المستصفى: للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق محمد عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
١٦. المسند: للإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
١٧. مفتاح العلوم: لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
١٨. مقال للشيخ وليد السعيدان في موقع ملتقى أهل الحديث الإلكتروني على الرابط:
https://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=٢٥٠٦٤٣
١٩. الموافقات: للإمام إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت٧٩٠هـ)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٢٠. الوسطية في القرآن الكريم: للدكتور علي محمد محمد الصلابي، مكتبة الصحابة، الإمارات، ومكتبة التابعين، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.